الباب الثانى
التنظيرات السياسية الإصلاحية

الفصل الأول
القومية وبذور الفكر السياسى الحديث

- **القومية والاعتداد بالفروق المحلية للشعوب**
- **أثر المسلمين والصينيين فى أوروبا**
- **دانتى إليجيرى**
- **مارسيليو أوف بادوا**
- **ماكيافيللى والماكيافيللية**

القومية والاعتداد بالفروق المحلية للشعوب:
هذه الدراسة معنية ببيان ظاهرة الدولة القومية أو الوطنية بمفهومها الغربى National State؛ وقوامها الاعتداد بالفروق المزاجية واللغوية والجغرافية التى تطبع مجموعة من البشر يشتركون فيها بطابع واحد أو متقارب؛ وذلك فى مقابل الفكر المثالى أو الدينى أو الشمولى الذى يؤمن بصهر المجتمعات فى بوتقة نظام حكم ومبادئ فكرية جامعة واحدة.

ولذلك فحين داخلت الفكرة الإقليمية –رغم ما سيدل عليه البحث من مزاياها- فكرتى الإمبراطورية الواحدة والكنيسة الواحدة تسارع المشرعون بعد القرن الثالث عشر فى إثبات دعوى أن كل ملك إقليم ماهو إلا الحاكم الوحيد لإقليمه مما مهد لقيام (الدولة الإقليمية) ثم

(الأباطرة الإقليميين) فيما بعد خلال القرن السادس عشر واختطت كل دولة لنفسها قوانينها وأنظمتها المستقلة فى التعليم والثقافة والاقتصاد والفن وسائر الشئون الاجتماعية والدينية [1] .

ظهر هذا الاتجاه كما ذكرنا رد فعل للتقسيمات والكوارث الداخلية ولمحاولات الغزو ولاسيما الجرمانى الذى يوصف بأنه همجى قضى على الامبراطورية البيزنطية الغربية سنة ٤٧٦م ثمت العثمانى الذى وضع حدا للإمبراطورية البيزنطية الشرقية سنة ١٤٥٣م ؛ ولو أنه بالأول دخلت أوروبا ظلام العصور الوسطى وبالثانى كان خروجها به أو بسببه.

ومع أن الاعتبار بالفروق المحلية بين المجتمعات ليس قاصرا على التفكير السياسى الغربى ولم ينعدم فى مذهبيات الدويلات التى تدين بعقيدة جامعة واحدة كما فى الأمة الإسلامية أو العربية؛ حيث عرفت –مع وحدتها فى أمة الخلافة- تنوع المذاهب الفقهية؛ وإن لم تنجح غالبا فى إقرار مبدأ تعدد الدويلات فى دولة جامعة (فيديرالية أو نحوها).

إلا أن إثارة الفكرة على أيدى المفكرين الغربيين منذ لهجوا بها فى إيطاليا فى خواتيم العصور الوسطى قد اقترنت باجتهادات فكرية سياسية متواصلة وحثيثة لم تستطع أن تلتقى مع الفكر الدينى المسيحى فى الغرب كما لم تهادن أى نظام دينى آخر مما جعل الفكرة القومية منذ بداياتها فى أوروبا تقترن بالعلمانية الوضعية البحتة رغم احتفاظها بحق الهيمنة أو التوسع أو دعوى الرسالة كما فى الفكر العقدى أو الدينى نفسه.

وهذا هو موطن التناقض الذى تلبَّس به الفكر القومى الغربى منذ كان وإلى أن سلم الغرب بعد الحرب العالمية الثانية بحق تقرير المصير لسائر الشعوب أى حقهم فى تكوين دولتهم القومية الخاصة دون وصاية أو تبعية لدولة قومية أخرى ولو من الوجهة النظرية وحسب.

---

[1] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....، ص ١٥٥، ١٥٦، ٤٢٠

▲ وقد تبينا أن الإقرار بالسمات المحلية للشعوب لم يحل دون التعالى بهم أو عليهم فى دولة طمحت نظريا إلى قيم أخلاقية واجتماعية وعملية اقتضتها فصل الدين عن السياسة فلم تخل من التناقض فى الحالين.

أثر المسلمين والصينيين فى أوروبا:
كانت إيطاليا مهد روح جديدة بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر. فقد احتلت المدن الإيطالية مثل 'فلورنسا' و 'جنوا' و فينيسيا' أعظم المراكز الاقتصادية فى أوروبا بأجمعها.

وكما سنقبس من ماجستير باحث نيجيرى ومن محصول الحروب الصليبية وصلح صلاح الدين / قلب الأسد: ثمة مبرر قوى للربط بين نشأة النظام الرأسمال وتطور هذه المدن وقربهما مكانا وعهدا من المسلمين وتعاملها معهم.

فى محض مقولة نمو المدن الإيطالية ونشأة النظام الرأسمالى قال على عبد المعطى: إن 'إيبنستاين' يرى أن النظام الرأسمالى لم يبدأ بالثورة الصناعية فى انجلترا فى القرن الثامن عشر؛ ولكنه بدأ فى القرن الثالث عشر فى إيطاليا.. بالتجارة الواسعة والاستيراد والتصدير وتنمية رأس المال وبالتعاقد والتبادل الدولى [١] .

نعم ورد فى بحث للماجستير بجامعة إبادان بجمهورية نيجيريا الفيدرالية قدمه باحث نيجيرى واستدل فيه بباحثين غربيين متخصصين أيضا أن "أوروبا الغربية قد استفادت لتقدمها العلمانى العلمى –ولاسيما فى مجال أصول علم الاقتصاد Rudimentary Financial Science ونظم مسك الدفاتر Systematic Book Keeping ".

هذان العلمان وغيرهما من العلوم التى ذكر الباحث أن الأوروبيين أخذوها من المسلمين العرب والسوريين؛ وبدونها كان يستحيل قيام

---

[١] على عبد المعطى محمد/ الفكر الياسى الغربى.....ص ١٥٥، عن Ebenstein\ Great poleticalTheories,p.248

التنظيم الواعى "لحياة الأعمال" أو الحياة الاقتصادية Business Life والأسس العملية لتطوير النظام الرأسمالى [١] .

والحق أن من المحقق فى البحث الجامعى الرأسى الحديث اكتشافات تصدق هذا البحث الإفريقى نفسه وما إليه .فإلى جانب المعروف من أهمية المال ضمن مقاصد الشريعة الإسلامية الخمسة والمعروف من أبواب وطيدة الصلة به فى أبواب الفقه فإن للمسلمين فى ذلك التاريخ وما أعقبه تأليفات فى الاقتصاد بأدق ما يعنيه فى علمه المتقدم اليوم .

يأطر لهذه النتائج البحثية بلا ريب مناخ التواصل السلمى المشجع بالمعاهدات ومنه المؤكد من الأثر الطيب الذى تركه صلح (ريتشارد قلب الأسد) ملك انجلترا وقائد الحملة الصليبية المشهورة مع صلاح الدين.

ذلك الصلح التاريخى المشرف الذى قضى أيضا بتزويج أخت ريتشاردز من الملك العادل ، أخى صلاح الدين مع حكم العادل للشام وانسحاب ريتشاردز بالصليب الخشبى غير مخذول ، والسماح للعجائز ومن يرغب غير محارب أن يتبرك بالأرض المقدسة. إلى آخر هذه الملحمة الدامية من الصراع الذى لم يخل من قيم النبل بيت المسيحية والإسلام . وهى التى أوقفت أوروبا على الجوانب الطيبة فى حضارة المسلمين وموقفهم السمح من أهل الكتاب عامة والنصارى خاصة – وذلك فى اتفاق عقد فى ٢١ شعبان سنة ٥٨٨هـ - الموافق للأول من سبتمبر سنة ١١٩٢م [٢] .

حقيقى أن للموقع الجغرافى وعلاقاته بمحيطه أثرا حقيقيا فى الأفكار والمشاعر المهتاجة عنها أو بها. هذا الموقع الذى يعنينا هنا هو موقع إيطاليا بين دول حوض المتوسط حيث مراكز العلم والتمدن وما إليهما

---

[١] The Under Development of Indigenous Entrepreneurship in Nigeria , by. E. O. Akeredolo Alo, Ibadan University , Nigeria, 1975 ومرجعه هو / Religion And The Rise of Capitalism Rudiment, by w. H. Tawney, Harcort, France, p. 4(The Development of Entrepreneur's Theory)

[٢] Arab Histories of the Crusades From the Arabic sources , By f. Gabrielli , Frem Halian & E. J. Castello., a book in The Islamic world Series of G, E. Ven Grunbaun(general editor) 1957 p. 230 – 237S

فبسبب هذا التأثير المناخى الإنسانى التعاملى والتعلمى نفسه بدأت حركة التمرد على الكنيسة فى إيطاليا رغم تمركز الكنيسة بها فى روما.

بدأت النهضة العلمية فى إيطاليا بنقل الحساب العربى والأرقام التى استخدمها العرب ونقلها الغرب باسم الأرقام العربية Arabic Numerals . وبدون ذلك كان يستحيل التقدم العلمى بسبب ضيق مجال الاستعمال الرياضى فى الأعداد الرومانية ، والتى لا تعدو كونها تكرارات أولية ربما بقد ما كانت الشُّرَط والدوائر والحلزونان المصرية القديمة علامات فى زمانها.

ويعزى الفضل فى إدخال الأرقام العربية إلى القس 'جربرت' الذى صار بابا روما وتسمى بـ 'سلفستر' الثانى. وكان قد درس فى القيروان ثم عاد إلى إيطاليا وترجم كتب العلوم العربية وقاد حركة تصحيح القانون الرومانى فى ضوء الشريعة الإسلامية.

ذكرت الأرقام العربية والقانون عن العربية كما سبق وذكرنا تقنيات المنطاد والباراشوت والدفع النفاث عن الصينيين لأنهما من الوجهين النظرى والعملى للعلم والتمدن ؛ وكذا ذكرت سلفستر دى ساسى لأقدم سببا للاحتراز من أن يوحى ما يرد من أمر الثورة بالكنيسة بأنه لم يكن لبعض رجال الدين وأهل الورع فضل فى النهضة إذ لم تقتصر دعوة اللإصلاح على العلمانيين كما لم تعن العلمنة مناقضة الدين دائما.

كان أثر الاتصال المادى بالشرق إذن إيجابيا فى حياة الأوروبيين الغربيين بقدر -أو على نحو- ما كان الاتصال العلمى؛ رغم الوحشة التى لا يمارى فيها للاحتكاك أو الترذل الحربى. ورغم شوائب من سوء الفهم داخلت علماء الغرب وفقهاء المسيحية عن الإسلام ، ورغم شوائب لا نستبعدها كذلك داخلت سلوك المسلمين فى تركيا والأندلس. وهو الاتصال الإيجابى الذى نتصور أنه كان يصعب على الأثر اليونانى الرومانى المشوب بالعنصرية أن يمحوه ؛ وإن نغص منه كتابات البعض.

نقرأ رواية :"الفرسان الثلاثة" لـ "اسكندر ديماس" فيفاجئنا بطلها (الامبراطور) فى حواره لـ (دوق اسبانيا) ؛ إذ يتبرأ من أن يدعى (أبا عبد الله) أو (أبا محمد) . و التركى الذى كان له فضل فى تحرير العقل الأوروبى من نير الإمبراطورية الرومانية الشرقية وإخراجه من ظلام العصور الوسطى فى الغزو الدرامى لمحمد الفاتح للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م ؛ وكان مضرب المثل فى الوثوق بالكلمة : قد تغير بما سرى فى طبعه من العادات الإغريقية والمفاسد الرومانية السابقة.

وصورة هذا التركى المسلم فى قصة (بايزيد) لشيكسبير تكاد تعدل صورة (شيلوك) اليهودى فى قصة "تاجر البندقية" إن لم تزد عليها فى درجة الفظاعة لا فى نوعها [١] .
وحتى المصريون وهم ورثة حضارات وأصحاب مكانة وموارد فإنهم بعد أن وقعوا تحت الحكم التركى سنة ١٥١٧م قد احتاجوا إلى قُرابة ثلاثة قرون للخروج من حالة العزلة والاستنزاف والعجمة التى فرضها عليهم الحكم التركى الاستبدادى إلى أن غزاهم نابليون سنة ١٧٩٨م.

وأمام الأتراك فى أوروبا هاجر كثير من العلماء إلى غرب أوروبا فرارا من الترك وبعثوا اليونانية فى غرب أوروبا ؛ ودفع قطع الأتراك لطريق

---

[١] يرجع لقصتى ديماس وشيكسبير فى مظانهما
- والاعتراف ببعض فضائل الترك لدى سلامة موسى بكتيبه "ماهى النهضة" ص ٩٩ ، ط دار الجيل للطباعة بالفجالة.
- و(أبو عبد الله) الذى عرَّض به ديماس يمكن أن يكون آخر ملوك غرناطة . وقد نزل بمليلة قرب الحدود الجزائرية . وقد غزاها الاسبان أيضا(ربما انتقاما) سنة ١٤٩٦م \ مجلة معهد البحوث والدراسات العربية لجامعة الدول العربية ، عدد ١، ١٩٦٩م، ص ٢٥٧.
- أو أبا عبد الله محمد الصغير الذى ساعده أهل البيازين ضد أبيه الغارق فى الملذات. وفى مواجهة جيوش فرديناند وإيزابيلالا يسلم أو يضطر إلى تسليم مفاتيح الحمراء بثلاثين ألف جنيه قشتالى وملكية قصوره وضياعه وممتلكات أهل بيته ؛ ثم رحيله والهجرة الجماعية للأشراف وعلية القوم والأغنياء\
رضوى عاشور / ثلاثية غرناطة . الرواية الأولى ٠٧ – ٢٤٥) ، فى مجلد من ثلاث روايات ، همعك ٢٠٠٣م فى نشرة مكتبة الأسرة ، سنة ٢٠٠٣م \
- و مختارنا هنا من مقتن بتسعة أقسام فقط من الجزء الأول من الثلاثية ، ويقع بين ص ٧ و ١٠١
-أما (بايزيد) المذكور بواسطة شيكسبير ؛ فلعله بايزيد الثانى الذى خلفه محمد الفاتح المشهور . وقبله(بايزيد الأول) الذى نكبه (تيمورلنك).
-والمعروف أن الفاتح كان يعتمد على مشاركة أعوان من النصارى الغربيين فى الفتح ، كما أن جيشه من (الانكشارية) –وهم خيرة جنوده- كانوا من صبيان النصارى المنشئين فى الإسلام.
-ولتأثر الأتراك بعد بالعادات الوثنية أو الهمجية فى العقوبة وغيرها مكان آخر فى أبحاثنا.

التجارة العالمية إلى الهند - فضلا عن الصين- التى تزود الأوربيون منها بأصول مخترعاتهم المحلية الفريدة(البوصلة المتطورة - الباراشوت – المنطاد – قاذفة النار – القنبلة ذات الدفع الصاروخى الخ) وبعضها كان مجرد لُعَب للأطفال هناك

. دفع ذلك كله دول الغرب الأوروبى إلى التفكير الجاد ؛ فكانت اكتشافاتهم ؛ أو بالأحرى تطويراتهم وإضافاتهم المهمة من قبيل المطبعة وطريق رأس الرجاء الصالح ، وساروا فى طريق مطرد إلى حرية الفكر وتسخير المادة ؛ والهيمنة الاقتصادية والتقنوية ؛ مما أسهم فى اطراد مسير الحكام المسلمين بشعوبهم فى الطريق الهابط الذى سدر بهم فيه النفوذان المملوكى والتركى.

لم يكن لدى الأتراك العثمانيين فى حربهم ضد جيرانهم المسلمين مبرر يمكن أن يزعم دينا أو دعاية كما فى حربهم ضد الأوروبيين ؛ ولاسيما فى أوقات أعوز الإسلام العثمانيين إلى نجدته حقيقة كما حدث فى اسبانيا فترة مذابح فرديناند وإيزابيللا.

برر الضمير الغربى من جديد على ما يبدو احتقار الشعوب الأخرى وأجاز احتلالها ؛ بل تسخيرها لنبوغه وإثراء دوله القومية المتفتية وقد ظنت كل منها فى نفسها روما جديدة فأخذت تطور نفسها على نحو رومانى: من الملكية إلى الجمهورية إلى التوسع.

نمت الطبقة المتوسطة واتسع حظها من الرزق والعلم وأخذت النظرة إلى الحياة تختلف وأدرك الأوروبيون أنهم يمكن أن يحيوا هذه الحياة فى ذاتها وينعموا بمباهجها ومضت حركة النهضة والإصلاح الدينى قدما [1] .

ويعزو البحث الجامعى النيجيرى الوارد قبل إلى المسلمين الفضل فى تغيير نظرة الأوروبيين إلى الجانب العملى والمصلحى من الحياة منذ الحروب الصليبية ويقدم أثر المسلمين فى ذلك على حركة الإصلاح

[1] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....ص٩٠

الدينى والمذهب البروتستانتى نفسه.

وهذا جائز لولا أن هذا الفهم المستزرع فى البيئة الأوروبية الجديدة قد روى بما مثلنا له من سلبيات عصبية ومطامع فضلا عن إسقاط المعادل الروحى الضرورى للحياة أو عزله بوقار وحسب فى بابوية هنا أو هناك .

▲حقا لم يعن التفكير العلمانى إلغاء الدين ؛ كما لم يكن عزله البابوية عن السياسة شرا كله أو على الإطلاق ؛ ولكن الحاصل الظاهر فى سياسة الغرب كما لعله حاصل اليوم الكيل بمكيالين أو أكثر ؛ ومن ثم تجوهلت القيم الدينية والأخلاقية نفسها فى سبيل مآرب سياسية ومادية كما سيرد ؛ ولذلك ارتبطت نشأة الاتجاهات القومية فى الغرب بمطاردة العرب واضطهاد اليهود وباسترقاق الأفارقة ، ثم باستعمار الشرق ؛ بدلا من مساعدته حقيقة على التحرر والنهوض.

دانتى إليجيرى (١٢٦٥-١٣٢١م):

مر بنا فى هذا البحث ما يصل النظام الرأسمالى عصب التفكير القومى الغربى بمصدره المادى والعلمى فى الشرق الإسلامى. وكثيرة هى البحوث التى تثبت دينونة كثير من المعارف والآداب والعلوم الغربية للعرب والمسلمين فضلا عن الصينيين كما أومأنا منذ قليل؛ ومع ذلك فقد كانت مواقف الدول القومية الغربية هى تلك المواقف المناقضة التى يسجلها تاريخ الاستعمار المعروف وتنطق به الكتابات الاستشراقية والقومية التعصبية على النحو الذى بيناه فى سياقينا: السابق والتالى.

ويمثل الشاعر الإيطالى "دانتى أليجيرى" Dante Aligheri هذه الظاهرة غير المنطقية إلى حد كبير. وقد مثلت كوميدياه الإلـ'ـهية تأثره بل دينه للآداب الشرقية والإسلامية خاصة [١] .

---

[١] عبد الحكيم العبد/
- تطور النقد والتفكير الأدبى فى مصر فى الربع الثانى من القرن العشرين فى مصر، دكتوراه بآداب الإسكندرية ١٩٨٥م (الباب الأول ، مبحث الترجمة عن الإيطالية
- وأبو العلاء المعرى ونظرة جديدة إليه ، مج٢ ص١٤٣-١٤٨(- حلقات التأثير والتأثر فى القصص

بل إن شيوع أثر الثقافة والآداب الإسلامية فى إيطاليا بين أوساط العوام والخواص أثرى اللغة الشعبية الإيطالية وأدبها فكتب هو كوميدياه يهذه اللغة وأسهم فى القضاء على تفوق اللاتينية. وتحت تأثير دعوة دانتى أمرت الكنيسة بعدم طباعة الإنجيل غير مترجم إلى يومنا.

لكن كِتاب دانتى فى "المونـاركية" وإن كان عارض حكم العالم بواسطة البابا قد دعا إلى حكم امبراطورى للعالم. ولئن كان قد قيد المونارك (المللك) بالقانون العادل وبقوانين فرعية تلائم كل إقليم على حدة فى ظل قانون الامبراطورية الأشمل فإنه زعم أن الشعب الرومانى هو : أنسب شعب اختاره الله ليحكم العالم ؛ وعلل ذلك بمقابلة تجارب الرومان والاسكندر خاصة فى حكم الشرق بتجارب البابليين والآشوريين والفرس والمصريين [1] .
-وهو ما يوافق بعض رأى أرسطو وشيشيرون وبوزانكت ؛ ويناقضه نظر سينيكا إلى روما نفسها فيما نستقبل من الدراسة.

ومبلغ ما وصلت إليه النزعة القومية فى فكر دانتى أنه خالف الفكر الكنسى للقديس 'أوغسطين' ولآباء الكنيسة الذين اعتبروا دولة المدينة الأرضية مبدأ الشرور والآثام ، وقبل فكرة مسيحية أخرى اختلطت بالفكر الأرسطى عند القديس ' توماس الإكوينى' الذى قرر أن الدولة تعبير طبيعى للدوافع الاجتماعية للإنسان باعتباره حيوانا اجتماعيا وسياسيا.

▲والجملة السابقة تظهر أثر أرسطو فى الرجلين كما أن حلم دانتى بحكومة مونـاركية للعالم تحقق السلام والعدالة والسعادة والحرية على الأرض يظهر الأثر المسيحى التقليدى. وكذلك فإن فكرة السيادة والامتياز الإغريقية الرومانية غير خافية فى الدعوى نفسها، مما يدلنا على أن دانتى كان مدفوعا ودافعا للنزعة القومية الإيطالية الطامحة إلى تجديد

الميتافيزيقى) بين المعرى ودانتى- النزعة والمحتوى فى رسالة المعرى وقصة دانتى)
[1] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....ص ١٥٥- ٤٥٩

حكم الرومان للشرق أو على أقل تقدير جمع الإيطاليين المتناحرين فى وقته حول فكرة واحدة.

مارسيليو أوف بادوا(١٢٧٥-١٣٤٣م):

يمثل 'مارسيليو أوف بادوا' Marsiliue of Padua مختتم العصور الوسطى ومفتتح عصر النهضة . وقد تمثلت التغييرات الأساسية عنده فى نمو الشعور العَدائى تجاه الكتيسة والكنسيين وفى ضعف البابوية وفى الاتجاه نحو النظرة العلمانية ونهوض (البرجوازية) وقيام الدولة القومية.

كان بادوا يمتهن الطب ويطلب الفلسفة والقانون واللاهوت . وبادوا مدينة إيطالية شهدت مولده وعرفت بحب الحرية وبمحاولة تحرير ذاتها من رجال الكنيسة ومن الطغاة الرومان وكان هو ينتمى إلى الطبقة المتوسطة ويتميز باتجاه شكى تجريبى واقعى شأن أمثاله من الإيطاليين الأحرار المتتلمذين للعرب واليهود المنزوحين من الأندلس فى ذلك الوقت [١] .

عاب بادوا على معاصريه ما عابه قبله بقرنين الشهرستانى على معاصريه من أخذ أرسطو مأخذا مظهريا. وأخذ بادوا من ثم يتأمل حكومات أرسطو الصالحة والطالحة ؛ أى المونـاركية وديموقراطية الصفوة فى مقابلة حكومة الطاغية فضلا عن الأوليجاركية والديماجوجية.

وقف على معيار للمفاضلة يتمثل فى (مدى إسهام أيها فى خدمة الحاكم أو المحكومين) وعدل عن فكرة الطاعة الواجبة على المحكومين عند أرسطو إلى ما قال به هو من (أن غاية الحكومة هى تحقيق الصالح العام للجماهير أو صالح الرعية بتعبيرنا الإسلامى.

لكن الجديد (الديموقراطى) فى المسألة قوله بأن ذلك ينبغى أن يتم بأسلوب يوافق الشعب أو الجزء الأعظم منه وتنويهه بالأثر العاجل للقانون الإنسانى الوضعى فى مقابلة الأثر الآجل للقانون الإلـ' ـهى

[١] بتصرف عن الفكر العربى ومكانه فى التاريخ، ص ٢٩٦، ٢٩٩، ط مخيمر ، ترجمة د. تمام حسان ، ١٩٦١م .

واعتباره المجتمع مصدر القانون يضعه المشرعون من غير الأطفال والعبيد والنساء والأجانب.

وقد فتح بادوا بفكرته عن (الجزء الأعظم) من الشعب وباعتباره بقيمة الكيف والكم فى الإصلاح باب التفكير فى أسلوب التمثيل السياسى للشعب باختيار الصفوة كما فتح الباب لتطور النظام البرلمانى وتولية من يصلح . وكذلك نفى عن الحاكم أية صفة (ميتافيزيقية) وأجاز للشعب عزله كما أجاز عزل الأساقفة بواسطة المؤمنين وأخضع الكنيسة للدولة وعد رغبات البابا من دواعى الثورات.

▲وفرْقُ ما بين بادوا ودانتى أن بادوا ركز على معنى الاختلافات بين المجتمعات من حيث اللغة والدين والثقافة والعادات والتقاليد ؛ فكان أبعد أثرا فى قيام (الدولة القومية) وهى التى أفل بها نجم العصور الوسطى [1] .

ماكيافيللى والماكيافيللية:

*بعزل الدين أو بالأحرى بعزله لنفسه بسبب كهنوتية رجاله فى أوروبا ، ودون غمط الأفكار العلمانية جميعها أو فى ذاتها يمكن أن نقول إنها رويت بالمتاح لها فى البيئة الجديدة من المياه اليونانية الرومانية والتطلع الرأسمالى وفتاوى المصلحين الدينيين على ماسيفصل فى قسم لهم بالدراسة.

ولقد رأينا كيف بدأ الصراع بين العلمانيين والكنسيين وكيف تعقد وماذا آثر حكام الأقاليم وماذا فى خلفية ذلك من ترهيب كان حاق ببيكون وجان دارك وغيرهما.

---

[1] ذلك من عرض على عبد المعطى فى الفكر السياسى.. ص ١٦٤

- ونستدرك بما يأتى:
- - أن أرسطو قال أيضا بضرورة تحقيق الصالح العام وإن كان فضل الحكومة المشتركة على الاستبدادية وعلى الديموقراطية وفقا لمبدئه الذى هدته إليه تأملاته وملاحظاته وهو أن الفضيلة وسط بين رذيلتين(مبدأ الوسطية خبDoctrine of the mean
- ويراجع مطرد تحبيذ الحكومة المشتركة حسب معيار المصلحة عند بوليبوس وشيشيرون
- واعتبار كالفن بمعيار المصلحة دون نوع الحكومة .

وبررت الغاية الوسيلة فى فكر ماكيافيللى((Niiccollo Machiavelli ١٤٦٩ – ١٥٢٧م) [١] فبدا فى القرن السادس عشر معلما لأسلوب طبقته الطبقة الإسبرطية من قبله كما طبقه التتار وأخذ به المماليك فترة تهمجهم فى القرن الثالث عشر وانزلق إليه بعض الحكام المسلمين أو المحسوبين على الإسلام من أمثال محمد الأمين الكانمى فى حكمه لأقاليم (برنو) بغرب إفريقيا فى القرن التاسع عشر أو نوع من مزيج من الطغيان والمثابرة مع النذالة والجرأة كما عرفا فى أحمد باشا الجزار فى القرن الثامن عشر[٢] أو مع الغرور واللَّجاج كما عرفا فى محمد على ونابليون عند أعتاب القرن التاسع عشر وظل يعتنقه الساسة الإنجليز لاسيما المحافظون – طبق أصل فيلسوفهم "بيرك (ت١٧٩٧م) إلى منتصف القرن العشرين كما سيتكشف باطِّراد.

شرع ماكيافيللى للأمير فلسفة قائمة على مطلق الظن السيئ بالطبيعة الإنسانية قياسا على وقائع التاريخ المعاصر له فى الغالب فعد الإنسان فى كل زمان ومكان "أنانيا حقودا خداعا جبانا لا يستثيره إلا منافعه ولا يحركه إلا مصالحه وهو نفس التصوير الذى سيذهب إليه 'توماس هوبز Thomas Hobbsأ (١٥٨٨ – ١٦٧٩م) على أثره.

عد هذان المفكران السياسيان الحالة الطبيعية للإنسان حالة طمع وأنانية وكبرياء ووسم (هوبز) الحياة الطبيعية الأولى بأنها كانت منعزلة وفقيرة

---

[١] Machiavelli, Niccollo, 1469 – 1532 \ The Prince:
- Introduction by Christian Gauss
– Translation, by Luigi Ricci
- Revised by E. R. P. Vincent
- a mentor book, New American Library – Times merror, inc.., 1952 (p.o. box 999, BergenfieldNew jersey 07621

[٢] مطرد عادات الانتقام الهمجى الخ ومنها سمل العين والخصاء الخ فى صلتها بالعادات البيزنطية والمتغلين فى الإسلام وتعدد الزوجات فى البيت المسلم \ عبد الحكيم العبد/ أبو العلاء المعرى ونظرة جديدة إليه، دار المطبوعات الجديدةأ ١٩٩٣م، مج١، ص ١٥٤- ١٥٦ (من ثالثا: المتغلبون والشعوبية)
-و فهم بروكلمان للشخصية المغولية \ تاريخ الشعوب والأمم الإسلامية ، دار العلم للملايين، ص ٣٩١ – ٣٩٣
- تصوير الجبرتى لعبث المماليك أو بالأحرى فظائعهم بعجائب الآثار ، ص ٦٢ - ٦٤
- وصدد المملوك أحمد باشا الجزار، بمجلة العربى، إبريل ١٩٨٢، ص ١٦٦ - ١٧١

وقذرة ووحشية وقصيرة: حالة ذئاب وصراع الجميع ضد الجميع [١].

فكان رأيهما مصادما للآراء المتوافرة فى مزايا الفطرة عند سقراط وأفلاطون وسينكا وروسو وغيرهم [٢] ؛ فضلا عن مناقضته لمفهوم الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها بالمفهوم الإسلامى والحنيفى فى عمومه.

بل كان الرأى مناقضا لخير ما فى الواقع الأوروبى نفسه فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر؛ حيث عرفت أوروبا فيهما النظام العثمانى الذى لم يُحرَمْ - ولو من الناحية النظرية- تقنينا بالشريعة كما عرفت أوروبا دولتين قوميتين حسنتى التنظيم صورهما ماكيافيللى نفسه فى كتابه "الأمير" وهما –فيما عدا إيطاليا بلده وفيما عدا اسبانيا- ألمانيا وفرنسا [٣] .

---

[١] على عبد المعطـ الفكر السياسى الغربى، ص ١٧٨، ١٢٥، ٢٢٧، ٢٢٩

[٢] على عبد المعطـ الفكر السياسى الغربى، ص ٤٢، ٤٦، ١١٢، ١١٤، ١١٥

- عبد الحكيم العبد/ نحو فلسفة للحياة والتربية العربية ، شباب الجامعة، (القسم الأول: مدأ الفطرة أو التربية الطبيعية\ ورقة عمل مقترحة) ص ١ - ٢٩

[٣] قال: كانت المدن الألمانية مدنا حرة حرية مطلقة يحيط بها ريف قليل وكان الألمان يختارون امبراطورهم بأنفسهم لا تداخلهم منه رهبة أو ممن يتولى أمرهم غيره. كانوا ممنعين لدرجة يعز فيها التقليل من شأنهم ويصبح إخضاعهم عملا مرهقا (ممضا) فلدى كل مدينة الخنادق اللازمة والموانع وما يكفيها من المدفعية ومخزون عام من الطعام والشراب والوقود بصفة دائمة قد أودعته مخازنها العامة.

ومما هو أكثر أهمية من ذلك كله أن (إدارة تلك المدن) قد أبقت الطبقات الاجتماعية الدنيا فيها فى حالة من الاكتفاء(الرضى) دون أن يعنى ذلك خسارة فى الثروة العامة.

إن لديهم الوسائل الكافية لتوفير العمالة فيهم لمدة سنة. تلك العمالة التى تكون عصب أية مدينة وحياتها كما توفر المواد الاقتصادية التى تتعيش عليها الطبقات الدنيا نفسها. أما التدريب العسكرى فإنه كان يحتل المكانة والاعتبار الأسمى وكثير من التعليمات(اللوائح) قد اضطرد بها التقدم\ Machiavelli, Niccollo, 1469 – 1532 \ The Prince, a mentor book p. 67

- كذلك كانت فرنسا مملكة حسنة التنظيم وكانت تحظى بحكم صالح. كان فيها ما لا عد له من المؤسسات الصالحة التى تقوم عليها الحرية (للناس) و (يتحقق) الأمان للملك.

قال: ولقد كان البرلمان وسلطته أهم تلك المؤسسات . فالبرلمان هو الذى أسس المملكة (ضمانا) ضد ما علم من مطامح النبلاء العظام وتوقحهم insolence . وقد وجد أن من الضرورى وضع شكمة لجام فى فمهم لكبحهم. ولقد كان الملك هو ذلك الضمان كما كان الملك فى الوقت نفسه ضمانا ضد ما علم من توقح طبقة الشعب.

- لقد علم البرلمان كراهية طبقة الشعب لكل من هو عظيم . لهذا فإنه بسبب الخوف منها ورجاء تأمينها لم يجعل العناية بها العمل الأخص بالملك . وكذلك أعفاه من مشاعر عدم الرضى التى يلقاها من الأمراء إذا راعى خاطر الشعب والتى يحتمل أن يلاقيها من الشعب إذا راعى خاطر النبلاء. لهذا أسس البرلمان سلطة ثالثة third judge \- Machiavelli, Niccollo, 1469 – 1532 \ The Prince, a mentor book p. 97, 98

هاتان صورتان مقبولتان للديموقلراطية والإدارة فى ألمانيا وفرنسا ولكنه هو نفسه لم يصدر عنهما فى فلسفته للإمارة فى إيطاليا كما أنه لم يهادن النظام الإسلامى الجمعى المقنن بالشريعة ولو نظريا فى تركيا فى عصره كما سنعاود.

فالواقع أن ماكيافيللى لم ير فى روما غير ديموقراطيتها الجزئية التى لم تنج من استبداد الأباطرة فقيدها هو أيضا فى القرن السادس عشر الذى شهد ثلثه الأخير بمشيئة الأمير فى فلسفة للإمارة لم تخل من التناقض أراد إقامتها على أساس الفصل الحاد بين الأخلاق وبين السياسة فى كتابه المعروف على الأقل: خطوة : حوشية أخرى -لا أريد أن أقول- إلى جانب خطوة فصل الدين عن السياسة.

لم تخطر له الفكرة الإنسانية بمعناها الأخلاقى ولم ير التعويل عليها لكون الإمارة فى رأيه تحفِل بما هو كائن لا بما ينبغى أن يكون ولكون الصراع فى السياسة صراع أسود وذئاب وثعالب لابد فيه للأمير من أن يجمع قوة الأسد ومكر الثعلب وإلا دمر.

غلب هذا الاتجاه على الكتاب ولو أنه لم يطلق مقولة "الغاية تبرر الوسيلة" The end justifies the means فى القسم الثامن عشر من كتابه إلا بعد أن بين الوجه الذى (لا) يجوز للأمير عليه حفظ العهد وذلك حيث يتعامل الأمير مع الناس أشرارا على ما هم \ as they are bad

وقد كانت فكرة العلاقة بين الإ نسان والكون غائبة كل الغيبة من قبل ماكيافيللى وإنما كان وكده تمجيد الغالب مهما يكن وحرَص على أن تنال إيطاليا قسطها من هذا العتو لتحريرها ممن سماهم فيها (الهمج) الأجانب[1]. والقسم التاسع من كتابه وله عنوان مائع (المبدئية المدنية Civic

---

[1] القسم الأخير رقم ٢٦، ص ١٢٧

Principality يقيم نجاح الأمير على الدهاء ومساعدة الحظ لا على محض الجدارة والحظ.

فبالدهاء يكسب الأمير خواطر العامة بمساعدة الأرستقراطية ثم هو مستطيع بعد ذلك أن يربط الناس إليه ببعض خير يجعلهم فى شعور دائم بالحاجة إليه وبحيث يتأثرون به تأثر من يجد الخير ممن يتوقع منه الشر . فليست العلاقة بين الحاكم والمحكوم هنا علاقة "ما ينبغى" بصريح تعبير ماكيافيللى.

أما حرص الأمير على صداقة الشعب فدافعه الوحيد المفهوم من كناب ماكيافيللى هو دافع الحاجة إلى الناس فى أوقات الشدة وهو نفس الدافع الذى دعا ماكيافيللى إلى نصح أميره بالحكم خلال القضاء وحتى يدع الأمير مغبة تنفيذ الأمور الكريهة تقع على عاتق غيره ويستأثر هو بكسب السمعة فى الناس بطريقة منح الخير لهم قليلا قليلا.

فليس يبصر ماكيافيللى فى القضاء بقيمة العدل لذلاتها أو كميزان كونى أو دينى بل لم يكن الدين مذكورا فى كتابه إلا باعتباره فى مثل قاس عليه فى إخراج موسى (عليه السلام) للإسرائيليين من مصر وباعتباره ذريعة pretext مجدها ماكيافيللى فى أفعال ' فيرديناند ' فى اسبانيا وفرنسا وإفريقيا وباعتباره مظهرا يفيد الأمراء أن يبدوا عليه كما يفيدهم أن يبدوا كرماء عدولا أمام الناس ؛ وتتقدم قيمة الخوف من الأمير على قيمة الحب فى نظرة ماكيافيللى فى الحكم.

والكتاب فضلا عن شك مقدمه فى نسبة فصله الأخير إلى ماكيافيللى به جرحان واسعان آخران:
-فهو يشكو "الهمجية" (barbarism) ممن عدهم أجانب منتنين فى إيطاليا بعد ما رأينا من تمجيده هو نفسه لأساليبهم فى إيطاليا وفى غيرها.
-والكتاب مع ما فيه من النزعة اللادينية الواضحة قد رأيناه قاصرا عن تقدير المدنيتين الدينيتين فى اسبانيا وتركيا المسلمتين. ولقد نعت الأتراك

- ولفظ الهمج منا بديل عن الآخر الشائع الاستعمال فى الغرب وهو مسيء لنا فى لفظ barbaric

المسلمين فى اليونان بأنهم "الكفار" كما مجد أفاعيل فيرديناند بالمسلمين فى الأندلس وإفريقيا.

ومع أن القرابة واضحة بين الماكيافيللية والوثنية الوحشية أو الهولاكية فى تعبيرنا فإن كتاب ماكيافيللى ظل دستور النظر الغربى إلى الشرق فى السياسة ولم تعْدُ المرحلة الاستعمارية أن مثلت التطبيق الأوقع الذى لم يعمر فى بلادنا أو غيرها. والأخطر من هذا عدواه فى بعض القانونيين . وسنرى فى قسم "القومية مرحلة التقنين والأيديولوجية كيف عُدَّ " بودان "ماكيافيللي" القانون كما عد " ماكيافيللي " (بودان) السلطة.

ولم تكن مملكة السلطان التى قصد بها ماكيافيللى السلطنة التركية أو غيرها من ممالك الحكم بالخلافة والإمامة وما إلى ذلك \ لم تكن تعنى مجرد القوة الموحدة المقابلة للدول الغربية فحسب . لم تكن مجرد بابوية Pontificate كما شبهها ولو مع المفارقة فى توريث الملك؛ إنما كانت خلافة أو إمامة –مهما انحرفت أو شاخت أو فسدت- لها أساسها السياسى النظرى فى عقيدة مقننة تذهب فى التشريع إلى التفاصيل .

يعتريها البلى' من قفزة البداية فى الانتقال القسرى أو الوراثى للسلطة فى هذه الأسرة أو الفئة أو تلك ثم من البعد عن الأصول ومن سوء التطبيق أو من تعرضها –كما حدث لخلافة آل عثمان- لمطارق الوثنية أو العلمانية.

تلك المطارق التى ما لبثت حتى وهت بقدر ما أوهت ثم ما عتمت أن عادت نظما ترعى السنن الكونى وتنشد الوئام قدر المستطاع. أما وقد كانت مطارق فقد شوشت النغم الكونى دون أن يعنى ذلك بالضرورة فساد الناس وسوء جبلتهم كما رأى ماكيافيللى وهوبز ونتشة ومن إليهم؛ بل يعنى اطراد القياس ؛ أى أنه ما ناقض النظر القانون وظاهر منهما السلوك الإنسانى إلا كان شر كما فى الحكمة القديمة.

▲وعلى الجملة مثل كتاب الأمير لنيكولو ماكيافيللى الوجه المقابل أو

النقيض لدساتير التورع وآداب المعاملة الأخلاقية الشرقية على العموم ومنها ما سنقف عليه – فى باب القومية المحافظة فى الشرق- من وسائل المغيلى معاصره تقريبا وطريد الماكيافيللية فى إفريقيا كما سنعرضه؛ ولكن الماكيافيللية مع هذا تهمج بالفعل عند البعض كما هو تهمج بالقوة على الأقل فى تنظير ماكيافيللى.

نورد الآن أيضا صورا مستبشعة للاستبداد ماكيافيللية الطبيعة لا لنؤيد رأى ماكيافيللى وهوبز الذى برراه لذويهم بصور مماثلة فى الغرب ؛ وإنما نخصص أحكامهما بالأمثلة المضروبة ونخصص الأمثلة نفسها بالظروف الخاصة بكل منها و "إن فى ذلك لعبرة لأولى النهى" كما ورد فى الكتب المقدسة والمقتبس نص من القرآن الكريم .

فالواقع أن رأى ماكيافيللى وهوبز يصدق على الحالات الشاذة فى التاريخ وإن كثرت فى بعض الأحيان.

لقد غزا نابليون المصريين الوادعين (وسأضرب صفحا عن دور نلسون سميه الإنجليزى فى إغراق أسطوله فى أبى قير ؛ فما زالت للفرنسيين قوة لم يعم عن وحشيتها وهمجيتها مظاهر العدالة التى أخذ بها المصريون إبان الحملة الفرنسية. فلقد أعدم الفرنسيون الشيخ محمد كريم محافظ الإسكندرية لموقفه ضدهم قدر جهده . وإعدامهم للحلبى قاتل كليبر بالخازوق وسيلة هى من بعض وسائل أحمد باشا الجزار ؛ وإنما رقى الجزار ووصل إلى درجة الولاية لنجاحه فى هزيمة الوحشية الروسية والفرنسية اللتين حاولتا غزو الشام ؛ وذلك بوحشية فائقة من الجزار .

والواقع أنه لولا الفكرة المسبقة المعروفة عن الغزو الغربى للشرق الأدنى لأوالأمثلة المعروفة عنه : لم يكن الشرقيون ليضطروا إلى أن يؤمِّزوا عليهم أنذلهم أو أجرأهم فى اصطناع الأساليب التى لا تتقيد بالأخلاق غالبا.

وفى رأينا أنه فى ضوء هذه الحقيقة يمكن تفسير الغموض الذى يحيط

بتولية المصريين لمحمد على فى مصر دون سواه.

ليست المسألة مسألة بلبال وغموض أحاط بالمصريين والحملة الفرنسية تنسحب (سنة ١٨٠١م)إذ يبدو لى فى ضوء مذابح نابليون فى فلسطين والتى شملت الأسرى والشيوخ وفى ضوء فل شراسة نابليون بولسون وبالجزار أن المصريين الشيوخ كانوا يعرفون ما هم فاعلون فاختاروا محمد على لجنديته قبل أن يختاروه لعلمه؛ بل لعلنا نقول اختاروه لجهله (طالما احتفظ فى قلبه بصبغة الدين وأثر الخلافة) ففل شباة المماليك الأكثر سوءا بطريقة بيزنطية، وبمعاونة الشعب فى مذبحة القلعة كما هو معروف. وفى ظله هُزِم الإنجليز أنفسُهم فى رشيد ولو أنه ما لبث أن انطلق بمحض غضبه العجمى لاكتساح الشام وتهديد الخلافة ذاتها فى شبه نزعة استعمارية انحدرت إلى اسماعيل حفيده بعد [١] .

لقد كان الشرق بالحق وبالصدق فى حال طبق الأصل الأسبق فى الغرب فى حال مروعة تحت حكم الشراذم المملوكية الأخيرة ولكن راعهم أيضا فعال دعاة المدنية والحضارة وما يزال الكامل من الرأى أن يحكم الناس القوى العادل فإذا لم يسعف الدهر أمة بقويها العادل فلا معدى للناس عن غشوم جسور إذا كان سيختصر الأشرار فى شرير واحد؛ وإن لم يرض هذا نوازع الفطرة السليمة كل الإرضاء. فلسنا مغالين إذ نقول إن العصبية القومية الغربية وإن لم تفلح فى سلب الشرقيين أرضهم زمنا طويلا قد سلبت الشرقيين أخلاقهم البسيطة الساذجة.

ولقد عرفت بلاد أخرى غير مصر والشام ظاهرة البقاء للأسوأ لبعض الوقت:

- نجح محمد الأمين الكانمى(ت١٨٢٤م) فى برنو بشمال نيجيريا فى توحيد عدد من الإمارات . وقد أطراه رحالة أوروبى لشجاعته وحزمه ومقدرته على إخضاع هذه الإمارات ، كما يتسم أسلوب بعض

[١] عبد الحكيم العبد/ تطور النقد والتفكير الأدبى فى مصر فى الربع الثانى من القرن العشرين، دكتواره بآداب اسكندرية ١٩٨٥م ، الفصل الأول : ١- مصر فى التاريخ التركى والمملوكى ، ٢- المصريون فى مواجهة الاستعمار والفردية العلوية.

المؤرخين الغربيين فيه بالتحيز وإظهار التقدير لعلمه (المحدود) بالإسلام ولمساعدته الوثنيين من زعماء ولاجئى كانو وكاتسينا ودورا [١] دون الإشارة إلى ما ورد فى وثائق الفولانيين من تعمد حرب هؤلاء للمسلمين فى جوارهم ومن تعمد أتباع الكانمى حجب الحقيقة عنه بالإضافة إلى قطعهم رسائل سلطان سوكتو وعدم وصولها إلى الكانمى أو وصول ردودها منه [٢] .

فأما إطراء الرحالة للكانمى فستلى رواية صور تكفى لإضعافه وأما أسلوب المؤرخين الذين أشرنا إليهم (ولم تعد لهذا النحو الخاطئ من التأليف السيادة الآن) [٣] فمبعثه فى رأينا – بالإضافة إلى العصبية القومية والعاطفة الاستعمارية نفسها – عدم الاطلاع بل عدم القدرة على استيعاب محاورات محمد بن الشيخ عثمان بن فوديو للكانمى . وهى محاورات فقهية رصينة وإن كان يقعقع فيها أسلوب ابن حزم فى الفصل فى الملل والنحل وتتشح بقدر من التسامح ونزعة ديبلوماسية استصلاحية ودفاعية ظاهرة وإن لم تنخدع ولم تلن لمراوغات ومشاغبات جدلية وردت بها للكانمى تتمحل بالإسلام وبعض التخريجات لصالح الموقف السياسى لا غير؛ قبل أن يعترف الكانمى للفقه الفودوى بالإصابة قبل الفتح الفولانى الذى أنهى مملكة بورنو التى كانت تسير بالفعل فى طريق التداعى والانحلال ولاسيما بسبب الفساد ورشوة القضاة والاضطهاد والطغيان وعبادة الأوثان فى مواضع بعينها إلى نهاية القرن الثامن عشر [٤] من بعد عهد السلام والاستقرار تحت إدريس ألوما (..... – ١٦٤٤م) وحكومته

---

[١] Ajaye, J. F. A & Michael Crowder\
History of West Africa, Longman , London 1971, vol. 1, p. c

[٢] محمد بن عثمان بن فوديو/
إنفاق الميسور، ط القاهرة، نشر الحاج طن أغى طابيرو ، سوكتو، تحقيق لجنة من علماء الأزهر وغيرهم، إيداع دار الكتب ٢٤١٧/ ١٩٨١م ، ١٦٦، ١٦٨، ١٨٤

[٣] Ale, E. O. Akeredolo\
The Under Development of Indigenous Interpreneurship in Nigeria, M.A. , Ibadan University press 1975 ....

[٤] Ajaye, J. F. A & Michael Crowder\
History of West Africa, Longman , London 1971, vol. 1, p. 508

حسنة التنظيم. [١]

وربما لم يكن الكانمى فى درجة شراسة أحمد باشا الجزار ؛ وحظ الكانمى من المعرفة بأمور الدين غير منعدم ولكنه كان شديد الحقد مولعا بالمغامرة مبالغا فى الانتقام بالغدر والتخريب والحرق وكان ضارا بمنطقة ذات حظ من حضارة معطاءة بسبب مناوأته لمجهودات الشيخ عثمان بن فوديو (ت ١٨١٧م) [٢] المصلح الدينى الورع ، الحجة فى الأحكام والأخلاق ولم يكن يرى حرب المبتدعين ما رجعوا إلى الإسلام الصحيح أو جنحوا للسلم [٣] ؛ وينفى وصم المؤرخين المذكورين له بالتعصب للفولانية أن باعث الحرب بينه وبين الكانمى كان مناصرة الكانمى لفولانيين ظاهروا على الشيخ الفولانى كفارا كانوا هم البادئين بالحرب [٤] .

وحقا كان أمير جومل المدعو "دان هوا" لاذعا فى سخره من تهديد الكانمى بغزو جومل ولكنه عاد فحاول استرضاءه بالهدايا كما هى العادة وكذلك وسط شيخا ذا مكانة عند الكانمى هو "شتيمة الله رحمة" فما كان من الكانمى إلا أن اتخذ المبادرة وسيلة لتحقيق شغفه فى الانتقام فوعد السفير بأن يرفعه إلى مقام أمير جومل إن أقنعه بالحضور بنفسه فحضر ملاطفا مستصلحا لكن الكانمى طلب منهما أن يقفا متجاورين وأحل نفسه بهذه الطريقة من وعده لـ شتيمة الله قائلا له هأنذا قد رفعتك إلى مقامه ثم أسلم دان هوا إلى غريمه "جلاديما نجورو" فقتله. ثم لم يقف تشفى

---

[١] Ajaye, J. F. A & Michael Crowder\ History of West Africa, Longman , London 1971, vol. 1, p ٥٠١

[٢] تاريخ حركته الجهادية معالج أيضا فى: Anene , Joseph, C. & Brown, Godfry, N\ Africa in the Nineteenth and twentieth century , p. 294 - 301

[٣] محمد بن عثمان بن فوديو/ إنفاق الميسور، ط القاهرة، نشر الحاج طن أغى طابيرو ، سوكتو، تحقيق لجنة من علماء الأزهر وغيرهم، إيداع دار الكتب ٢٤١٧/ ١٩٨١م ، ص ١٩٤

- ومن نظمه: من خالف الحق فهو مبتدع ولا تكفره ما دام تأويل

[٤] محمد بن عثمان بن فوديو/ إنفاق الميسور، ط القاهرة، نشر الحاج طن أغى طابيرو ، سوكتو، تحقيق لجنة من علماء الأزهر وغيرهم، إيداع دار الكتب ٢٤١٧/ ١٩٨١م، ص ٦٨، ١٩٤

- ويراجع إكراه الأمير ينف للشيخ على الهجرة وحرقه قريته وقتله النساء والشيوخ والأطفال، ص ١٥٨؛ وهزيمة أمير غوبر "حين بغى" على يد رجال الشسخ، ص ١٩١- ٢٠١

الكانمى عند حد فغاضب حليفه جلاديما نجورو بعد فترة وأحل مكانه ابن القتيل فهرب نجورو منهما وعاش شريدا [١] .

ويلاحظ أن البطولة التى يضفيها الفكر الاستعمارى على الكانمى يقابلها تشويه خططى للشيخ عثمان وكذب خبيث على الإسلام كالادعاء صدد الجهاد الفولانى بأن فكرة الجهاد فى دار الحرب تخير غير المسلمين بين الإسلام وبين القتل و استرقاق الذرارى والنساء ولو أن المؤلف ذكر أيضا أن المسلمين يسمحون للمهزومين باتباع أديانهم القديمة تحت الحماية والجزية التى يغلب أنه لا يفقهها لغويا او اصطلاحيا فى العربية ودعاها percapila tax وغير ذلك من الخلط [٢] وقفنا على أمثاله [٣] .

ذلك أسلوب عرفته بلاد التكرور كما عرفت أسلوب الشيخ المعاصر للكانمى وهو عثمان بن فوديو . والفرق بين الأسلوبين هو الفارق بين الحكم بشهوة الاستعلاء والتطاغى وبين الحكم المتضع للعدل والدستور ونحو ما أوردنا مقابلا للماكيافيللية أيضا فى التيار الإصلاحى الإنسان من مبادى المغيلى(ت١٥٠٣م) فى الإمارة .

ولكن انجلترا وفرنسا أو الدول القومية الاستعمارية بصفة عامة كما لم تميز حقا من باطل فى شرقنا الإسلامى العربى لم تميز حقا من باطل فى هذه البلاد الإسلامية الأفريقية أو المنعزلة ؛ بل جعلهما كما جعل غيرهما فى آسيا وغيرها ساحات لنفستهم القومية ؛ قبل أن يقتسمها الغالبون منهم وينكبوها ولاسيما بتخريب حظها القليل من مقومات العمران والتمدن ليحلوا محلها ظاهرا من ثقافات الغرب ونظمة وآلاته لا غير ثم ليتركوها

---

[١] ملسوم، ج. ر./ الكانمى أو منقذ برنو، ترجمة د. كمال ابراهيم بدرى، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو ، كانو، نيجيريا، ١٩٧٨م .

[٢] ملسوم، ج. ر./ الكانمى أو منقذ برنو، ترجمة د. كمال ابراهيم بدرى، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو ، كانو، نيجيريا، ١٩٧٨م، ص ٥٦، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦

[٣] عبد الحكيم العبد/ فى محاولات تقديم القرآن وترجمته: عرض وتقييم وتقويم ، مراجعة مجمع البحوث الإسلامية ، نشر ، ط الهيئة ٢٠٠٧م صدد ألفريد جيوم بالفصل الأول ، وصدد تقدمات التراجم بالفصل الثانى وغير ذلك.

- وكتابنا فى الترجمة ، هيئة فصور الثقافة ٨٧ وهامشها مثلا

كما تركوا غيرها منحسر عصلر الاستعمار اضطرارا لتبدأ هذه الدول حياتها من الصفر تقريبا وقد زرعت فيها ألغام أجسام غريبة مزروعة ومن مشكلات حدودية وإثنية وغير ذلك.

على أن ما أوردناه من متعدد صور - سمها ماكيافيللية أو هجومانية أو همجية أو استعمارية أو ما شئت هنا أو فى غير هذا البحث- إنما هو اطراد لحلقات المظالم والتباغى المتناثرة فى التاريخ وعهد أوروبا بها فى قرونها الوسطى غير بعيد لكنها لا ينبغى أن تصرفنا عن تعظيم مسئولية المستعمرين عن الفرح بها واستثمارها لمساوئهم الجديدة؛ كما لا ينبغى أن تعمينا عن رؤية دلائل الخير فى عتمة الشر نفسه وهى الدلائل التى تابعناها فى أكثر من فصل.